في التصوير الإسلامي

ليلى والمجنون

للدكتور محمد مصطفى

— ٣ —

أقام المجنون بين أهله وذويه ، يواسونه ويعطفون عليه ، ويخصونه برعايتهم وعنايتهم ، حتى تاقت نفسه إلى رؤية حبيبته ليلى ، فاصطحب بعض أصحابه المخلصين ، وذهب معهم إلى حي قبيلتها ، فوجدوها جالسة أمام بيتها مع بعض أهلها . وعرفته ليلى فحيته وحياها ، ولكنه لما أراد أن يقترب منها ليحادثها منعه ذووها . فأعاده أصحابه إلى بيت والديه مهموما حزيناً متفكراً . وظل يتفكر في أمرها حتى منعه ذلك من الطعام والشراب ، وترك محادثة الناس ، وصار في حدّ يرحمه كل من رآه من عدو وصديق ، فكان يقول[1]:

ما بال قلبك يا مجنون قد خُلعا ... في حب من لا ترى في وصلها طمعا
الحب والود نيطا بالفؤاد لها ... فأصبحا في فؤادي ثابتين معا

ولامه أهله وعذلوه وقالوا : لا خير لك في ليلى ولا لها فيك ، فلو تزوجت واحدة من بنات عمك ، نرجو أن يذهب عنك بعض ما بقلبك من حب ليلى ، فأنشأ يقول[2]:

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق مني والغرام قضى ليا
أراني إذا صليتُ يممتُ نحوها ... بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها ... وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا

واشتد بالمجنون الأمر حتى خاف عليه أهله ، فذهب معه أبوه وبعض رجال عشيرته إلى والد ليلى وقالوا له[3]: إن هذا الرجل لهالك ، وإنك فاجع به أباه وأهله ، فنشدناك الله والرحم أن تزوجه ليلى ، فوالله ما هي أشرف منه ، ولا لك مثل مال أبيه ، وقد حكمك في المهر ، وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل . فأبى وحلف بالله وطلاق أمها أنه لا يزوج ابنته هذا الرجل المجنون أبداً ، فقال قيس[4]:

ألا أيها الشيخ المذي ما بنا يرضى
شقيتَ ولا هنّيتَ من عيشك الغضّا
شقيتَ كما أشقيتني وتركتني ... أهيم مع الهلاّك لا أطعم الغمضا

(١) الديوان ص ٨ — ٩ ، والأغاني ص ٣٢
(٢) الديوان ص ٦٩ ، والأغاني ص ٦٨ ، وتزيين الأسواق ٦٩
(٣) الأغاني ص ٢١
(٤) الديوان ص ٥٥ ، والأغاني ٩١ ، وتزيين الأسواق ص ٦٥

الذي جاء به القرآن هو أسمى ألوان القصص التمثيلي الذي تندق دون تقليده أعناق المفلقين ، فما بالنا جعلنا الانصراف عن ذلك عاماً بحيث شمل جميع الموضوعات الدينية والشخصيات الدينية ؟ إن في سير صحابة الرسول الكريم آيات من القصص التمثيلي لو عرفنا كيف نبرزها على المسرح لتوفرت لنا مئات من التمثيليات الرائعة التي تزرى بما هو نوعها عند الأمم الأخرى . . . وأقول مرة أخرى إنني وأنا أكتب ذلك الكلام الآن ألمح هذه الابتسامات الساخرة ترقص على بعض الشفاه التي لم تشد قليلاً ولا كثيراً من تاريخنا الاسلامي — على أنها شفاه جاهلة لا تزن ما للدين من أعمق الأثر في توجيه الأمة المتدينة — على أنني أيضاً لست أريد أن نبدأ في نهضتنا المسرحية من حيث انتهت أوربا ، وإلا تكون دعوة إلى نكسة لا تليق بنا ، لكنني أرى استغلال الروائع العظيمة من سير الصحابة الذين يجلهم الشعب في إيجاد مسرحيات دينية تمس روح الشعب الدينية وتلعب على أوتاره الحساسة في سبيل النهوض به وهدايته إلى مثله الأعلى الذي يرفعه إلى منازل العز والسؤدد الأخلاق . يجب أن نفهم روح العصر ونتخذ الوسائل المستحدثة في الوصول إلى روح الجماهير ، ويجب ألا نتخلف عن موكب الانسانية فنتخذ وسائل عقيمة غير التي يتخذها هذا الموكب وإلا كنا شذاذاً — ويجب أن نصنع ذلك ما دام لا يناقض ديننا . . . إن رواية القصة على الأسماع ليس له من السحر في النفس والأسر في القلب ما تحدثه مشاهدتها على المسرح تتحرك شخصياتها ، وتتحرك وقائعها ، وتتحرك مشاهدها ، فتثبت في الذاكرة إلى الأبد . يجب ألا نكون أمميين فنسد آذاننا عن هذه الحقائق

وربي هيثبة

كأن فؤادي في مخالب طائر إذا ذكرت ليلى يشدّ بها قفصا
كأن خراج الأرض حلقة خاتم عليّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

وسمعه أبوه اللوّح فأشفق عليه ، وقال إن ابنه عاقل وليس به جنون ، ثم التفت إليه وناداه أن يتقدم ويخاطب والد حبيبته ليثبت له عقله ورشاده ... وتقدم قيس ... وإذا بكلب ليلى يظهر بغتة ، فيعرف فيه حبيب سيدته ، ويهمهم له بذنبه ... فلم يتمالك المجنون من أن باقى بنفسه على الأرض ، إلى جانب الكلب ، ليحتضنه ويناجيه ويسأله عن ليلى ... فكان في ذلك أكبر دليل على جنونه . ورجع أبوه معه إلى بيته حزيناً وقد خاب أمله

(شكل ١)

ولما حاول أهله مرة أخرى أن يزوّجوه إحدى بنات عمه ، مزق ملابسه ، وفر هارباً ... إلى حيث تأتيه ذكريات ليلى ... إلى جبل التوباد ... ولما دنا منه قال[1] :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآني
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك في حفظ وطيب زمان
فقال مَضَوْا واستودعوني ديارهم
ومَنْ ذا الذي يبقى على الحدثان

ثم خر مغشياً عليه ، فوجده بعض عابري السبيل ، فأشفقوا عليه ، وحملوه إلى منزل والديه

وفي (شكل ١) اجتمع اللوّح بن مزاحم وبعض أقاربه بوالد ليلى يخطبونها لابنهم قيس . ويرى قيس وقد أتى بنفسه على الأرض يحتضن كلب ليلى ويناجيه ، ويحاول أخوه عبثاً أن يجره إلى الخلف ليبعده عن الكلب . وجلس والد ليلى في الوسط وقد ثبت ما قاله عن جنون قيس ، وإلى يمينه اللوّح وقد ظهر على وجهه الحزن والأسى . ووضع بعد الحاضرين أسابعهم السبابة في أفواههم دلالة على ما اعتراهم من دهشة لهذا المنظر الغريب الغير مألوف لديهم . وهذه الصورة[1] في مخطوط من منظومات الشاعر هاتفي الجامي ، مؤرخ سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٥م) ومحفوظ في مكتبة الدولة ببرلين .

* * *

أفاق المجنون من غشيته حائل اللون ذاهلاً ، فوجد نفسه في منزل والديه وقد جلسا إلى جانبه مع إخوته وابن عمه زياد بن مزاحم وبعض أقاربه ، يبتهلون إلى الله تعالى أن يخفف عن قيس ويرد إليه عقله . وأجال المجنون بصره فيمن حوله ، فتبيّنهم وعرف فيهم أهله وذويه ، فترك لنفسه العنان ، وجعل يبكي أشد بكاء وأوجعه للقلب ويقول[2] :

صريع من الحب المبرح والهوى وأي فتى من علّة الحب يسلم

وتقدم الناس إلى أبيه أن يخرجه إلى مكة ، ويعوّذه ببيت الله الحرام ، لعل الله يعافيه مما ابتلي به . فخرج به أبوه ، وسار معه ابن عمه زياد ، الذي جعل يلازمه ويدوّن ما يقول من أشعار وأناشيد . ومروا في طريقهم بحمامة تنوح على دوحة ، فوقف

(١) الديوان ص ٢٥ ، والأغاني ص ٥٢ — ٥٣ ، وتزيين الأسواق ص ٥٩ — ٦٠ ، وانظر أيضاً شوقي ص ٨٣

(١) منقولة عن : Arnold and Grohmann, Pl 52
(٢) الديوان ص ٤

المجنون صاغياً لها يبكي ، وتخلّف معه زياد وقال له : ماهذا الذي يبكيك ؟ سر بنا نلحق الرفقة . فأنشد المجنون[1] :

أأن هتفت يوماً بوادٍ حمامةٌ
بكيتَ ولم يعذرك بالجهل عاذرُ
دعتْ ساقَ حرٍّ[2] بعدما علَت الضحى
فهاج لكَ الأحزانَ إن ناح طائرُ
يقول زيادٌ إذ رأى الحيَّ هجّروا
أرى الحيَّ قد ساروا فهل أنت سائرُ
وإني وإن غالَ التقادمُ حاجتي مُسلِّمٌ على أوطان ليلى فناظرُ

ولما دخل مكة أمره أبوه أن يدعو الله أن ينسيه ذكر ليلى ويبغضها إليه، فقال المجنون : اللهم زدني لليلى حبّاً ، وبها كلفاً ، ولا تنسني ذكرها أبداً . فزجره أبوه وأخذه حتى أمسّكه أستار الكعبة وقال له : قل اللهم أرحني من ليلى وحبها . فتعلق المجنون بأستار الكعبة[3] ...

ولكن قال يا ربُّ ملكت الخير والشرّا
فهات الضرَّ إن كان هوى ليلى هو الضرّا
وان كان هو السحر فلا تُبطلْ لها سحرا
ويا رب هب السلوى لغيري وهب الصبرا
وهب لي موتة المُضْنى بها لا ميتة أخرى

(شوقي)

فلما سمعه أبوه رق له ، وأخذ بيده نحو « منى » يريد رمي الجمار . وكان الوقت موسم الحج ، والطريق غاصة بقوافل الحجاج ، تغدو وتروح بين بيت الله الحرام وجميع بلاد العالم الإسلامي . وكان قيس يسير بين أهله متفكراً ، يستقبل الريح التي تهب من ناحية نجد ، وإذا به يسمع صوت حادٍ يتجه صوب تلك الناحية ، حيث مضارب بني عامر على سفح جبل التوباد . ثم يتعالى الصوت قليلاً قليلاً حتى يظهر الحادي ومن ورائه قافلة تسير ، وأنصت قيس ، وإذا بالحادي ينشد في صوت عذب حنون[1] :

هلا هلا هيّا ، إطوي الفلاطيّا ، وقربي الحيّا ، للنازح الصب جلاجل في البيد ، شجية الترديد ، كرنة الغرّيد ، في الفنن الرطب هلا هلا سيري ، وامضي بتيسير ، طيري بنا طيري ، للماء والمشب طيري اسبقي الليلا ، وأدركي النيلا ، العهد من ليلى ، ومنزل الحب بالله ياحادي ، فتش بتوباد ، فالقلب في الوادي ، والعقل في الشعب

(شوقي)

(شكل ٢)

ولما سمع المجنون الحادي يردد في أنشودته ذكر ليلى والتوباد ، صرخ صرخة مدوية وخر مغشياً عليه . واجتمع عليه قومه ، وأبوه باك حزين ، وجعلوا يروحون له ويرشون على وجهه الماء إلى أن أفاق مصفر اللون وأنشأ يقول[2] :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بلبي طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى أسخن الله عينه وليلى بأرض الشام في بلد قفر

(١) الأغاني ص ٥١ — ٥٢ ، وتزيين الأسواق ص ٥٩
(٢) ساق حر : أصله صوت القماري أنظر الأغاني ص ٥٢ م ٣
(٣) شوقي ص ٢٨ — ٢٩

(١) شوقي ص ٣٩ — ٤٠
(٢) الديوان ص ٥ ، الأغاني ص ٢٢ ، ٥٥ تزيين الأسواق ص ٥٩

عرضت على قلبي البراء فقال لي من الآن فاجزع لا تمل من الصبر

وفشا أمر المجنون بين الحجاج ، فلامه بعض قومه وطلب منه أن يستشعر الصبر ويستبقي مودة الحبيب بكتمان الحب ، فكان من جوابه أن قال[1] :

إن الثواني قتلت عشاقها يا ليت من جهل الصبابة ذاقها
في صدغهن عقارب يلسعننا ما من لسعن بواجد ترياقها
إن الشقاء عناق كل خريدة كالخيزرانة لا تمل عناقها
زانت روادفها دقاق خصورها إني أحب من الخصور دقاقها
إن التي طرق الرجال خيالها ما كنت زائرها ولا طراقها

ثم انسل من بين أهله ، ومزق ملابسه ، ولجأ إلى جبل التوباد ، حيث جعل يخطط بأسهمه في التراب ، ويجمع العظام حوله ، ويعاشر الظباء والوحوش .

وفي (شكل ٢) نرى الناس وقد أحاطوا بالكعبة الشريفة رافعين أيديهم بالدعاء لقيس أن يمن الله عليه بالفرج . بينما تعلق قيس بأستار الكعبة وهو يقول[2] :

أتوب إليك يا رحمن مما عملت فقد تظاهرت الذنوب
فأما من هوى ليلى وتركي زيارتها فإني لا أتوب

وقد صور المصور الإيراني الكعبة الشريفة بأستارها كما هيأها له خياله ، وجعل الحمام يطير حولها ويحط عليها في أمن وسلام . وهذه الصورة[3] من تصوير المصور حيدر قولي في أسلوب المصور الشهير رضا عباسي . وهي في مخطوط من المنظومات الخمس للشاعر الكنجوي كتب حوالي سنة ١٠٣٤هـ (١٦٢٤م) في مدينة أصفهان . وهذا المخطوط محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس .

(يتبع)

محمد مصطفى
مساعد في دار دار الآثار العربية

(١) الديوان ص ٦
(٢) الديوان ص ٦
(٣) منقولة عن : Blochet, Musulman Painting, Pl. CLXIII

من نحت الماضي

الأستاذ محمد محمود شاكر

حَسْرَةٌ وَلَّتْ، وَأُخْرَى أَقْبَلَتْ، كَيْفَ؟ مِنْ أَيْنَ؟ مَتَى لَمْ أَعْلَمِ!
مَوْجَةٌ سَوْدَاءُ تَنْقَضُّ عَلَى مَوْجَةٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ مُظْلِمِ
تَنْفَانِي وَمَنًى لَا تَنْفِنِي ، وَكَمْ رَدَّهَا تَيَّارُهَا كَالضَّيْغَمِ!
صَمَّمَتْ ، حَتَّى إِذَا مَا الْتَهَمَتْ نُورَ أَيَّامِي طَاشَتْ فِي دَمِي
فَهْوَ أَمْوَاجُ ظَلَامٍ : لَا تَرَى، لَا تُبَالِي، لَا تَعِي، لَا تَحْتَمِي

* * *

زَهْرَةٌ حَنَّتْ ، فَبَاحَتْ فَذَوَتْ أَذْبَلَتْهَا نَفْحَةٌ لَمْ تُكْتَمِ
شَكَتِ الْبَثَّ لِنَجْمٍ سَاطِعٍ، ثُمَّ ظَنَّتْ فِي شُعَاعٍ مُلْهِمِ
شَعْشَعَتْ عِطْرًا ، فَلَمْ يَعْبَأْ بِهِ لَيْتَ النَّوْطِيَّ أَمْ لَمْ يَلْتَمِ
فَضَّ سِرَّ سِرِّهَا ، فَانْفَضَتْ، فَهَوَتْ سَاجِدَةً لَمْ تُرْحَمِ
وَرَمَى النَّجْمُ شُعَاعًا وَسَنًا . . ثُمَّ ضَاعَ النَّجْمُ بَيْنَ الْأَنْجُمِ

* * *

قَدْ جَلَا الْوَهْمُ عَرُوسًا زُيِّنَتْ لَيْتَ حِلْيَتَهَا لِلْمَأْتَمِ
إِنَّمَا أَنْوَاحُهَا أَكْفَانُهَا ، وَالْأَغَانِي لَحْنُ قَبْرٍ مُعْتِمِ
وَوُجُوهٌ أَشْرَقَتْ مِنْ نَشْوَةٍ لَمْ تَكَدْ... ثُمَّ هَوَتْ لَمْ تَسْلَمِ
شَهَوَاتٌ أَشْعَلَتْ ثُمَّ خَبَتْ : لَمْ تَكُنْ إِلَّا شَكَاةَ الْمُغْرَمِ
نَظْرَةٌ ، ثُمَّ هَوًى ، ثُمَّ مُنًى ، ثُمَّ ... وَانْفَضَّ كَأَنْ لَمْ تَحْلُمِ

* * *

لَا أَرَى إِلَّا نَمَاءً أَوْ سُدًى ، فَبَصِيرٌ فِي ضَلَالٍ أَوْ عَمِ
وَلَيَالٍ أَعْلَمَتْ أَنْوَارُهَا ، وَلَيَالٍ نُورُهَا لَمْ يُفْهَمِ
وَهُمَا الدَّهْرُ ... فَلَا لَيْلٌ وَلَا صُبْحٌ ، بَلْ وَالِدَةٌ لَمْ تَعْقِمِ
وَحَيَاةٌ مِنْ فَنَاءٍ فُجِّرَتْ لِفَنَاءٍ فِي حَيَاةٍ تَرْتَمِي
كُلُّهُ لَمْحُ وَمِيضٍ خَاطِفٍ ثُمَّ ... لَا شَيْءَ ... فَجَاهِلٌ أَوْ نَمِ

محمود محمد شاكر